مستقبل علاقات الغرب بالإسلام السياسي في الشرق الأوسط في مضمار التنافس الحضاري والاختراق الاجتماعي

أ.د. محمد عثمان شبير*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه *ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين* .

أما بعد . . . فإن قضية العلاقة بين الإسلام والغرب من القضايا التي يتجدد الحديث عنها في كل عصر من العصور . فقد انشغل بها العالم في هذا الوقت –وعلى الأخص بعد انتهاء الحرب الباردة– انشغالاً كبيراً من الناحية الفكرية والحضارية والتاريخية والسياسية والمستقبلية . وقد تباينت فيها الكتابات : فبعضها وتّر العلاقات بين الإسلام والغرب بطرح نظريات الصراع والتنافس ،وبعضها دعا إلى الانكماش وعدم الدخول في حوار مع الآخر، وبعضها دعا إلى الحوار والتعاون والتعايش . فما الموقف من هذه الدعوات ؟ وما مستقبل العلاقة بين الغرب والإسلام السياسي ؟ للإجابة عن هذين السؤالين كتبت هذه الورقة بقصد رسم الخطوط العريضة لتلك العلاقة ومستقبلها وقسمتها إلى أربعة محاور وهي :

المحور الأول : أسس العلاقات بين الأمم والشعوب في الإسلام

تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب في الإسلام على الأسس التالية :

١. الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هي الدعوة إلى الله:

* أستاذ أصول الفقه ـ الجامعة الأردنية.

فالإسلام دين عالمي ينظم حياة الناس في جميع شئون الحياة ، وهو مفتوح لكل الناس ، فلا يغلق دون جنس من الأجناس. قال تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً" **(سبأ ٢٨)** .

٢. الوحدة الإنسانية :

فالناس أخوة في الإنسانية خلقهم الله تعالى من أب واحد (آدم) وأم واحدة(حواء) قال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً" **(النساء١)** .

٣. السلام هو الأصل في العلاقات بين الأمم والشعوب :

قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة" **(البقرة٢٠٨)** . ولأن المسلم يهيئ مناخاً ملائماً للدعوة إلى الله أكثر من الحرب ، ففي حالة السلم تكون العقول متفتحة والقلوب مطمئنة والنفوس مستقرة ، فتكون الاستجابة للدعوة سريعة.

لكن السلام في الإسلام يقوم على العدل والإقرار بالحقوق وعدم الاعتداء ، فإذا امتدت يد العدوان على المسلمين فلا حرمة للمعتدين ويرد هذا العدوان بإعلان الحرب على المعتدين . قال تعالى : "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " *(البقرة١٩٠)* . ويدخل تحت الاعتداء قطع الطريق، والبغي من طائفة على أخرى، وانتهاك حقوق الإنسان من دين ونفس ومال وعرض .

وهذا يقتضي أن لا يتنازل المسلمون عن مصدر قوتهم من جهاد وإعداد حتى لا يطمع الشذاذ في إيذاء المسلمين وقتلهم وهضم حقوقهم باسم السلام . وبهذا تكون القوة ضرورية للسلام والجهاد معاً.

٤. احترام المسلمين للعهود والمواثيق :

إذا عقد المسلمون مع غيرهم عهوداً ومواثيق وجب على المسلمين احترام هذه العهود والمواثيق لقوله تعالى : "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون" **(النحل٩١)**. وفي المقابل يجب على الطرف الآخر الالتزام بتلك العهود ظاهراً وباطناً ، كما لا يقبل منهم سلوك طريق

الخيانة . قال تعالى: "وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين" **(الأنفال ٥٩)**.

٥. التسامح مع الأفراد ومعاملة المسيء بالإحسان :

بالرغم من أن كثيراً من غير المسلمين يكنون العداوة للإسلام والمسلمين قال تعالى: "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم" **(البقرة ١٠٩)**.

إلا أن المسلمين أمروا بالإحسان إليهم فقال تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" **(فصلت ٣٤،٣٥)** وقال تعالى: "وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين" **(الشورى ٤٠)**.

المحور الثاني : العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب :

يمكن إرجاع تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب إلى اقتراب ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي . فقد كان الرهبان من النصارى كراهب عمورية وراهب الموصل يدلون طلاب الحقيقة كسلمان الفارسي على موطن بعثه النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته . وكان أحبار اليهود ينذرون المشركين من العرب برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون لهم " قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقلكم معه قتل عاد وإرم" . (السيرة النبوية لابن هشام ٢١١/١ – ٢١٨) .

أولاً : بداية العلاقة الفعلية بين الإسلام والغرب :

بدأت علاقة المسلمين الفعلية بالغرب منذ هجرة المسلمين إلى الحبشة التي كانت تدين بالنصرانية ، وكان ذلك قبل الهجرة النبوية . وفي المدينة المنورة عقد النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة سلمية مع اليهود . وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتباً إلى زعماء النصارى يدعوهم فيها إلى الإسلام. ولما ظهرت الخيانة من اليهود للمسلمين نبذ

الرسول صلى الله عليه وسلم عهدهم إليهم وقاتلهم . وكان أول احتكاك عسكري مع نصارى الغرب في معركة مؤتة ، حيث قدم الرومان من الغرب والشرق لمقاتلة النبي صلى الله عليه وسلم . كما اجتمعوا أيضاً في تبوك فأظهر الله دينه عليهم .

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم توجهت الفتوحات الإسلامية نحو الشرق والغرب ففتحت الأندلس وصقلية وفرنسا وسويسرا واصبح المسلمون القوة الأولى في العالم بعد القضاء على الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية . وقد استمرت الفتوحات الإسلامية إلى أن فتح المسلمون الأتراك القسطنطينية سنة (٧٥٣هـ/١٤٥٣م) وحاز المسلمون الأتراك على ثقة العالم الإسلامي في القيادة العسكرية والتفوق على الأمم المعاصرة لها في الصناعة واستخدام الآلات الحربية .

وقد أساء الغرب فهم الفتوحات الإسلامية واعتبروها استعماراً لبلادهم، وقد ترتب على ذلك كراهيتهم للجهاد والإسلام والمسلمين والأتراك، حتى أن البابا اعتبر يوم وفاة محمد الفاتح يوم عيد وأمر أن تقام الصلوات الشكر في الكنائس .

والحقيقة أن الفتوحات الإسلامية لم تكن استعماراً لبلاد الغرب، وإنما كانت تحريراً للشعوب من حكم الطغاة والمستبدين وأعادت للإنسان إنسانيته وحريته وكرامته وعبوديته لله تعالى. ولهذا فضل النصارى واليهود حكم المسلمين على حكم غيرهم من بني جنسهم ، فقد روي عن أبي عبيدة أنه رد الجزية على أهل حمص بعد أن أخذها منهم لعدم القدرة على حمايتهم فرفضوا ذلك وقالوا " والله إن لولايتكم علينا أحب من ولاية بني جنسنا علينا".

وكان جنود الفتوحات الإسلامية أشرف محاربين عرفتهم الأمم والشعوب ، يلتزمون بقيم الإسلام ، من عدل وأمانة ومحافظة على حقوق الأفراد ، ويجتنبون الغدر والتمثيل بالقتلى وقتل الأطفال والنساء ورجال الدين الذين لا يشتركون في القتال .

ومن الأمثلة على الأمانة أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عن دجاجة أو شاة من أموال الذميين (غير المسلمين) في أيام الغزو، فقال ابن عباس للسائلين ما تقولون أنتم؟ قالوا : "نقول ليس علينا من الأميين سبيل" فأجاب ابن عباس : "إنهم إذا أدوا الجزية لم

تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم" ومستند هذه الفتوى حديث للنبي صلى الله عليه وسلم حينما سمع مقالة اليهود: "ليس علينا في الأميين سبيل" قال: "كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر".

ومن الأمثلة على عدل المسلمين في الفتوحات الإسلامية " قضية سمرقند" التي فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي دون أن ينبذ إليهم عهدهم السابق مع المسلمين . حيث ذهب وفد من أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز بعد أن تولى الخلافة وشكوا إليه قتيبة . فأمر عمر بن عبد العزيز والي سمرقند" أن يشكل لهم محكمة للحكم بالحق في هذه الظلامة، فحكم قاضي سمرقند جُميع بن حاضر الناجي "بخروج الجيش الإسلامي من المدينة، وكذلك يخرج منها المسلمون الذين دخلوها بعد الفتح . فأحدث هذا الحكم رجة في سمرقند، فاستشار الوالي الخليفة ، فبعث إليه أن ينفذ حكم القاضي. فما كان من الوالي إلا أن طلب من الجيش الخروج كما طلب من المسلمين أن يخرجوا من المدينة. وبينما كان الجيش يفكك معسكراته، والمسلمون يصفون أعمالهم وممتلكاتهم جاءهم وفد سمرقند فقال الوفد : لم يكن هذا الحكم يدور بخلدنا لحظة واحدة، وإن تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله، وأمام حسن المعاملة التي وجدنا نعلن تنازلنا عن حقنا وبقاء الحال على ما هو عليه.

وإزاء هذه الرغبة الصادقة من أهل سمرقند أمر الوالي الجيش بالبقاء، وأمر المسلمين بعدم الخروج. ودخل كثير من أهل سمرقند في الإسلام .

وقد وضعت الفتوحات الإسلامية بصمات الحضارة الإسلامية على حضارة الغرب وتقدمه . وقد شهد بذلك الغربيون أنفسهم .

ثانياً : علاقة الغرب بالإسلام :

اتخذت علاقة الغرب بالإسلام شكل الصراع والعداوة وردوا على الفتوحات الإسلامية بكل قسوة وهمجية وحقدوا على الإسلام والمسلمين وتمثل ذلك في الحروب الصليبية، وإخراج المسلمين من الأندلس، والاستعمار، والاستشراق، وغرس إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، والقضاء على الخلافة الإسلامية.

وقد ترتب على ذلك :

١. سلب أموال المسلمين وثرواتهم .
٢. قتل النفوس وإلقاء الرعب في قلوب المسلمين .
٣. هتك الأعراض وإفساد المرأة المسلمة .
٤. تشريد شعب فلسطين .
٥. تشويه صورة الإسلام واتهام المسلمين بالتخلف والهمجية .
٦. القضاء على كثير من شعائر الإسلام من البلاد التي احتلوها .
٧. إحلال القوانين الوضعية محل التشريعات الإسلامية .

المحور الثالث: واقع العلاقة بين الإسلام السياسي والغرب :

إزاء الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين قام أحرار الأمة العربية والإسلامية ومن بينهم شباب الحركات الإسلامية بمناهضة الاستعمار الغربي دفاعاً عن عقيدة الأمة وحفاظاً على ثرواتها وهويتها. ونلخص أهم مواقف الحركات الإسلامية من الغرب الاستعماري في النقاط التالية :

١. مقاومة الاستعمار الغربي والاشتراك في معارك التحرير والاستقلال وكانت الحركات الإسلامية أقوى الحركات المناهضة للاستعمار كما قال "برنارد لويس" في كتاب الغرب والشرق الأوسط ص١٧٣. وقال "أنور السادات" في كتاب صفحات مجهولة من تاريخ الثورة المصرية. "فقد خاض شباب الحركة الإسلامية في مصر أعنف المعارك ضد الإنجليز".

وشارك شباب جماعة " فدائيات إسلام " الإيرانية بزعامة نواب صفوى في تحرير "مصافي عبادان" من النفوذ الإنجليزي .

٢. إعلان الكفاح المسلح ضد اليهود الغاصبين لفلسطين :

ففي مصر دعت الحركة الإسلامية الناس إلى التطوع للجهاد في سبيل الله وشاركت مجموعة من المتطوعين في حرب (١٩٤٨) بقيادة محمد فرغلي ويوسف طلعت . وفي الأردن قاد عبد اللطيف أبو قورة المتطوعين ، وفي سوريا قاد الدكتور مصطفى السباعي مجموعة من المسلمين المتطوعين ، وفي إيران

لبس مجموعة من الشباب المنتمين إلى جماعة " فدائيات إسلام " الأكفان واستعدوا للزحف إلى فلسطين، لكنهم فوجئوا بتوقيع الهدنة قبل سفرهم .

وقد شاركت الحركات الإسلامية في حركات التحرير الفلسطينية التي نشأت في الستينات، وشارك مجموعة من الشباب المسلم في الهجمات الفدائية ضد اليهود، وكانوا ينطلقون من مخيمات خاصة بهم تعرف بمخيمات الشيوخ . ولا تزال الحركات الإسلامية تقاتل اليهود في فلسطين على يد حركة المقاومة الإسلامية (حماس) والجهاد الإسلامي وفي لبنان على يد الحركة الإسلامية وحزب الله .

٣. كشف مثالب الحضارة الغربية .

٤. اعتبار الشيوعية من أخطر الاتجاهات التي تهدد عقيدة الأمة الإسلامية .

٥. رفض الهيمنة الغربية سواء أكانت بريطانية أم أمريكية .

واتخذ الغرب إزاء هذه المواقف العداء السافر للحركات الإسلامية واعتبر هذه الحركات خطراً على مصالحه في الشرق الأوسط ومن ذلك النفط ، وحرية الملاحة في البحار ، وأمن إسرائيل .

ومما يدعم هذا العداء : الحق الموروث على الإسلام والمسلمين . والإعلام الغربي الموجه من قبل اليهود، وتشويه صورة الإسلام واختزاله في "إرهاب" واستعداء اليهود للغرب على الإسلام من حركات إسلامية وأقليات مسلمة في الغرب . وقد ساهم في هذا الاستعداء جماعات الضغط اليهودية في الغرب وقادة اليهود في فلسطين المحتلة مثل هيرتزوغ ورابين ونتنياهو . فقد كتب الأخير كتاباً سماه "استئصال الإرهاب" ركز فيه على الإسلام ووصفه بالإرهاب ، ووضع في الكتاب خطة شاملة لمكافحة الإرهاب مما حدا "كلينتون" تبني هذا الكتاب بما فيه من إجراءات لمكافحة الإرهاب .

المحور الرابع : مستقبل العلاقة بين الإسلام السياسي والغرب :

إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحية ، والقرن العشرون هو قرن اليهودية وقيام دولة إسرائيل وانتصارها على بضع وعشرين دولة عربية وبضع وأربعين دولة إسلامية ، فإن القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام .

ومما يؤيد أن الإسلام قادم الآيات القرآنية مثل قوله تعالى :" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد٠ خوفهم أمناً يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون". ومن الأحاديث النبوية ما روى تميم الداري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ليبلغن هذا الأمر –يعني الإسلام– ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر (حجر) ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر " . مسند أحمد(١٠٣/٤) وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح .

هذا بالإضافة إلى قوة منهج الإسلام ، والرصيد الضخم الذي يمتلكه الإسلام من الجماهير، والثروات المذخورة في العالم الإسلامي من نفط ومياه ومعادن طبيعية ، والموقع الاستراتيجي الذي يتمتع به العالم الإسلامي ، فهو ملتقى القارات ، ومنبع الحضارات ومهبط الرسالات السماوية ، ووصول بعض الحركات الإسلامية إلى الحكم مثل إيران والباكستان والسودان وأفغانستان ، وامتلاك بعض هذه الدول للقنبلة الذرية. كل هذا يزيد من احتمال انتصار الإسلام في القرن الحادي والعشرين وظهوره على الدين كله بإذن الله تعالى .

وإذا نظرنا إلى الغرب وجدنا أن نظامه متزلزل الأركان بدأ انهياره بانهيار الاتحاد السوفيتي برغم ما يملك من ترسانة نووية ضخمة ، وأسلحة استراتيجية ، وقوة عسكرية واقتصادية وما ذلك إلا لأن الخراب كان في الباطن لا في الظاهر .

والغرب المتفرد الآن بالقوة والجبروت ليس بأحسن حالاً من نظيره الاتحاد السوفيتي، فهو يعيش أزمات خانقة تنخر في جسمه من الداخل . ومن ذلك: قضايا الحياة الجنسية والجريمة والإرهاب المحلي والمخدرات ، والبطالة ، والهوة الواسعة بني الغالبية

الساحقة من الفقراء والأقلية الضئيلة من فاحشي الثراء وغير ذلك مما يترتب عليه هجرة المال إلى الخارج ومن ثم ضعف الاقتصاد .

فإذا كان الغرب عاجزاً عن معالجة تلك الأزمات ويقف حائراً أمامها فلا بد من محاورة الإسلام للتباحث في أمر العلاج ، لأن الإسلام بما فيه من مبادئ وقوانين قادر على علاج الأزمات التي يتعرض لها الإنسان في كل مجتمع من المجتمعات .

وينبغي على المسلمين أن لا يضنوا على الغرب بما في جعبتهم من علاج ، بل ينبغي عليهم أن يبادروا الغرب بفتح باب الحوار لتحقيق أمانة التبليغ المطلوبة منهم .

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا السياق أن لا ينظر إلى الغرب على أنه مؤسسة واحدة تسيطر على جميع القطاعات في المجتمع الغربي ، وإنما ينبغي أن ينظر إلى الغرب على أنه مؤسسات متعددة وقطاعات مختلفة يسهل على الآخرين التفاعل معها والاتصال بها من خلال المؤسسات العلمية الأكاديمية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، ومراكز البحث ، وغير ذلك . فنستطيع اليوم بفضل وسائل الإعلام أن نصل إلى عقل الإنسان الغربي الذي وقع ضحية التاريخ والإعلام فنغيره ونصحح صورة الإسلام لديه . كما نستطيع أن نصل إلى المؤسسات العلمية الأكاديمية التي تبحث عن الحقيقة ونقدم لها الحقائق العلمية . ويستطيع رجال الأعمال المسلمون أن يقدموا الإسلام إلى التجار الغربيين ويصححوا صورة الإسلام لديهم .

كما ينبغي أن أنبه إلى أن الحوار مع الغرب لا بد أن يكون شاملاً شمول الإسلام ومتنوعاً تنوع الغرب وتعدده يأخذ كل نواحي الحياة الثقافية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية والفنية والرياضية وغير ذلك.

وفي نهاية هذا المحور وضعت إطاراً عاماً للحوار وآلياته .

ففي مجال إطار الحوار ذُكرت عدة أطر وهي بمثابة ضوابط للحوار وهي :

١. الحوار جزء من خطة عامة شاملة للإسلام وليس هو كل عمل الإسلام .
٢. أن يكون الطرف الإسلامي قوياً فلا يتنازل عن مصادر قوته .
٣. أن يكون الهدف من الحوار الوصول إلى الحق .

أن لا يترتب على الحوار التنازل عن المبادئ **الأساسية** في الإسلام .

٤. أن نراعي في الحوار واقع المدعو ونبتعد عن الإثارة والعنف .
٥. أن يكون الطرف الإسلامي هو المبادر للحوار مع الغرب لأنه صاحب دعوة .
٦. أن يتم التعاون بين المتحاورين في المساحات المشتركة التي تشكل أصولاً فطرية وفكرية، بينما يتم التحاور في المساحات المختلفة .

وفي مجال آليات الحوار ذكرت عدة آليات منها :

١. إعداد كوادر علمية وعملية لإدارة الحوار مع الغرب بحيث تقوم بهذا الدور بطريقة علمية وواقعية وتعطى القدوة الحسنة للآخر .
٢. إعداد منابر للحوار كالمؤتمرات والندوات وتبادل الزيارات .
٣. الاهتمام بالمسلمين الغربيين الذين دخلوا في الإسلام للقيام بالحوار .
٤. إنشاء مراكز بحث متخصصة لدراسة الغرب من جميع جوانبه .
٥. توجيه طلبة الدراسات العليا في الجامعات الإسلامية والعربية إلى دراسة قضايا الحوار مع الغرب .
٦. الاهتمام بالجاليات الإسلامية في الغرب لتعطى القدوة الحسنة للآخر .
٧. الاهتمام برجال الأعمال المسلمين لإعطاء القدوة الحسنة للآخر .

المراجع والمصادر

١. استئصال الإرهاب لنتنياهو .
٢. استراتيجية الولايات المتحدة الأمنية .
٣. الاستشراق لإدوارد سعيد .
٤. الأسس الشرعية للعلاقات لفيصل مولوي .
٥. الإسلام الأصولي لإدوارد سعيد .
٦. الإسلام كبديل لهوفمان .
٧. الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد .
٨. الإسلام والاستعمار لرودلف بيترز .
٩. الإسلام والنصرانية لمحمد عبده .
١٠. أضواء على السياسة الأمريكية لأحمد منصور .
١١. أطروحات الحركة الإسلامية في مجال الحوار مع الغرب لحسن الترابي .
١٢. الأموال لأبي عبد القاسم بن سلام .
١٣. انهيار الحلم الأمريكي لإدوارد سعيد .
١٤. تجربة الإسلام السياسي لأوليفيه روا .
١٥. التسامح في الإسلام لشوقي أبو خليل .
١٦. حركة الفتح الإسلامي لشكري فيصل .
١٧. الدعوة للإسلام لتوماس أرنولد .
١٨. رؤية إسلامية لأحوال العالم الإسلامي لمحمد قطب .
١٩. السيرة النبوية لابن هشام .
٢٠. الغرب والشرق الأوسط لبرنارد لويصس .
٢١. مائة مشروع لتقسيم تركيا لدجوفارا .
٢٢. المبشرات بانتصار الإسلام للقرضاوي .
٢٣. المستشرقون والمبشرون في العالم الإسلامي لإبراهيم خليل أحمد .